وادي ظل الموت

" أيضاً إذا سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شراً لأنك انت معي "

(مزمور 23: 4)

Frederick Brotherton Meyer

(8 April 1847 – 28 March 1929)

الواعظ والكاتب البليغ (ف.ب. ماير)

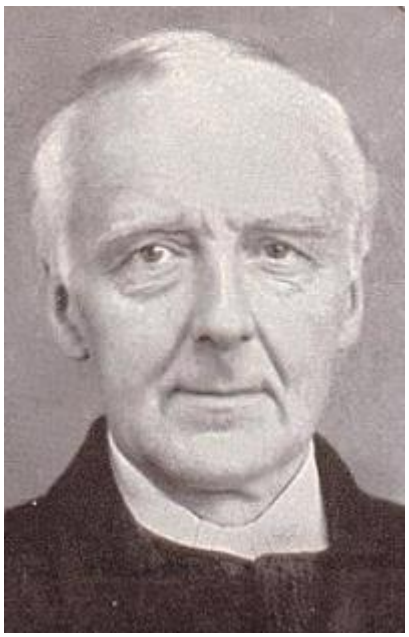

F.B. Meyer

تعريب القمص مرقس داود

في كل الكتاب المقدس لا توجد آية مألوفة أكثر من هذه.لا توجد شخصية في الكتاب المقدس قد تركت تأثيرا اكثر بقاء ودواما من تأثير هذه الآية. ان الصورة التي تصور نهاية حياتنا بوادٍ مظلم في نهاية طريقها المنير لازالت عالقة بذاكرتنا منذ أن تعلمنا أن نردد هذه الآية في الصغر ، ولقد كانت هذه الآية آخر ما نطق به الملايين من القديسين ، ولعلها سوف تكون آخر ما ينطق به الكثيرون ممن يقرأون هذه الكلمات الا إذا أتي الرب أولاً وأعفانا من اجتياز وادي الموت. وخطفنا لملاقاته في الهواء.

يخيل الي أنني أرى ذلك الوادى الآن . فالراعي يقود خرافه نحو حظيرتها وسط مراع خضراء غنية وأمكنة هادئة مريحة. وفجاة يبدأ الطريق في الانحدار إلي وادٍ سفلى - على أحد الجانبين هوة عمودية متصلة بقاع النهر الشديد الانحدار حيث تندفع المياه بشدة وتنكسر على صخور مسننة . وعلى الجانب الآخر يرتفع الجبل بأشجاره الظليلة. لا يزال الطريق ينحدر إلى أسفل الى أن يصل الى ممر عميق وضيق مسقف بصخور تكاد تصل الى رأس من يمر فيه،

اما الأشجار ففروعها متصلة بعضها البعض وهذا الممر مظلم جداً حتى في وقت الظهيرة والذي يلبث هناك قليلاً بعد الغروب تعتريه قشعريرة شديدة .وبطول ذلك الممر تكمن الوحوش المفترسة ، هكذا هو وادى ظل الموت ، الذى اجتازه مرة الراعي العظيم وحيداً والذى عن طريقه يقود خرافه الان الى الوطن . لقد اجتازته من قبلنا مقدمة الصوف . ويجتاز غيرهم الآن ظلاله المظلمة، وسوف نلحق بهم نحن أيضا عن قريب.

هذه الصورة تعطينا فكرة معزية عن الموت:

أنه ليس حالة، ليس حالة دائمة . وليس مكانا نسكنه ، بل هو ممر ، انتقال ، واد نجتازه . قد يكون الوادي مظلما وموحشا وتكتنفه شرور كثيرة لكننا لا نقيم خيمتنا هناك، بل نجتازه الي راحتنا . عند الموت تغادر الروح الجسد وتخرج منه، كما يغادر الصانع مصنعه في المساء ويغلق أبوابه ويذهب الى بيته تاركا اياه مهجورا وهادئا ، لكن صوته يسمع في دائرة بيته اذ يدخل البهجة في القلوب التي كانت تنتظره والتي لم يكمل فرحها الا بمجيئه .في دمشق حارة ضيقة طويلة مظلمة تنتهي بسرداب. قامت هذه الحارة هناك أجيالاً طويلة يصعد السائح اليها ويجتازها . لكنه ان يعبرها يجد فناء واسعا لقَصر شرقي تتلألأ فيه الأنوار ويتمتع بنور الشمس البهيج . هذه تمثل موت المؤمن• قيل عن المسيح أنه " بكر من الأموات " (كولوسي1: 18) الموت هو الولادة من سجن وظلمة الأرض الى نور وحرية الحياة السماوية. هو عملية جسدية تؤثر على الجسد، لكنها لا تمس مواهب أو صفات النفس. عندما " نتغرب عن الجسد، نستوطن عند الرب " (2كو5: ٨) أنه ليس بقاء في حالة لاشعور بل هو خروج ، ممر ، اجتياز واد قصير ، شمس مشرقة في هذا الجانب ، وشمس مشرقة في الجانب الآخر، تتوسطها فترة ظلام لا تدوم إلا لحظة واحدة

الموت باب للحياة:

أن أحباءنا ليسوا أمواتا ، بل هم الأحياء الذين اجتازوا الى حضرة الملك عن طريق الموت . وعندما نقف بجوار أعزائنا اذ يدعون إلى هذا الخروج الذي يتحدث عنه الرسول بطرس (٢ بط 1: 15) نستطيع أن نخاطبهم بكلمات العزاء والرجاء : " أخرجي أيها النفس المسيحية من هذا العالم باسم الله الضابط الكل الذي خلقك، وباسم يسوع المسيح ابن الله الحي الذي تألم من أجلك ، وباسم الروح القدس الذي انسكب من أجلك ".

ومع ذلك فالوادي مظلم:

ان آلام الجسد كثيرا ما تسبب انقباض الروح وتطرح عليها ظلمة قد تنسبب خطأ إلى أسباب روحية ليس هينا أن نغادر الأحباء - الذين رافقونا طول مرحلة الغربة - بدون حزن . وعلاوة على ذلك فهنالك شعور بالدهشة ، لأنه بالرغم من أن الآلاف يموتون كل ساعة إلى أن كل شخص يموت وحيدا . كما أن عدونا اللدود ينتهز فرصة ضعف الجسد وقت الموت ويكدس عناصر الخوف والفزع أمام أنظارنا وهي تذبل.

وعلى أي حال فان الموت ليس أمراً هينا وقد يقابل الشخص المتهور الموت دون تأثر ، ليس في موته شدائد ، وشجاعته ثابتة . لكن نظرا لإحساسات الروح الرقيقة فمن المستحيل أن نغادر الشاطىء وندخل البحر في ظلمة سحب الليل دون الشعور بشيء من الرهبة ، وخير تعبير له هو " المسير ":" أن سرت في وادي ظل الموت ".

والموت في أسوا حلاته ليس إلا ظلا:

هو (وادي ظل الموت ، المسيح حمل مادة الموت ونحن لا نلتقى إلا ظله . والوحش قد نزعت عنه أسنانه وأظافره . ان مسحينا آباد ذاك الذي له سلطان الموت أي ابليس ، وأعتق أولئك الذين خوفا من الموت كانوا جميعا كل حياتهم تحت العبودية (عب 2: 14و15)، وهو " أبطل الموت " (2تي 1: 10) . ونحن الذين نتبعه نستطيع أن نصرخ " أين شوكتك يا موت !" (اكو15: 55). آه، ان الحية لدغت الراعي الصالح لدغة الموت، وتركت لدغتها في الصليب الذي مات عليه . ان الظل يماثل جسمه تماماً ، لكنه ليس في حد ذاته مؤذيا . فظل الكلب لا يمكن أن يعض ، وظل الجبار لا يمكن أن يقتل . وظل الموت لا يمكن أن يهلك ، يقول النبي أن الموت نقاب يُغَطَي به وجه كل الأمم (ان 25: 7)، لكن النقاب لا يؤذي . علاوة على هذا انك لا تستطيع الحصول على الظل الا ان كان هنالك نور منير في الجهة الأخرى ، والظل وقتي أما النور فأبدى ، لأن « الله نور وليس فيه ظلمة البتة (ايو1: 5).

لكن هذا التعبير يمكن أن يمثل اختبارات أخرى غير الموت:

اننا كثيرا ما نجتاز أودية مظلمة في طريقنا الى بيتنا الأبدي . ان الطريق الى أورشليم السماويه تكتنفه أودية " البكاء "، حيث يكثر البكاء وتحول الدموع الى ينبوع (مز84: 6). إن صاحب الرؤيا - في وصفه لسياحة المسيحي - يضع وادي الظل في منتصف طريقه ، وبين البيت الجميل وبين سوق الأباطيل نرى وصف هذا الوادي الذي لا يمكن أن يكون قد كتبه إلا شخص جاز دروبه : " واذ اتى الصباح تطلع الى الوراء . لا رغبة في الرجوع بل لكي يرى في نور النهار مقدار الأخطار التي جازها في الظلام . فرأى - بوضوح أكثر - الحفرة على الجانب الواحد والبالوعة على الجانب الآخر، ورأي أيضا كيف كان الطريق بينهما ضيقا جدا , ورأي أيضا الجن والغيلان والتنانين في الحفرة، ولكن عن بعد، لأنها بعد طلوع النهار لم تعد تقترب إلا انها ظهرت له كما هو مكتوب : يكشف العمائق من الظلام ويخرج ظل الموت الى النور ". (ايوب 12: 22).

اننا نجتاز اودية ظل كثيرة قبل ان نصل الى الوادى الأخير:

وعندما نحس بظلمة الظل تضغط على النفس ينبغي أن نفحص انفسنا لئلا يكون السبب ناشئا من اهمالنا أو من خطيتنا , أن تبين ان هذا هو السبب فاننا في اللحظة التي نعترف فيها بتقصيرنا أو بخطيتنا نخرج من انظلمة إلى النور ، وان لم يكن هذا هو السبب - على قدر ما تصل اليه معرفتنا – فلنتشجع ونتقدم إلى الأمام . كل خطوة قد رسمت لنا من قبل . كما خطاها غيرنا قبلنا . والله يختبرنا ليرى ان كنا نستطيع أن تثق فيه في الظلام كما في النور : وان كنا نلازمه بنفس الولاء اذ نسير في الظلام كما كنا نير

معه في النور . هنالك قصد صالح في كل اودية الظل هذه . انها تمتحن النفس لمعرفة صفاتها . وهي تكتشف مواطن الضعف فينا . وهي تجعلنا نتبع الراعي عن قرب لئلا نضل عنه . وهي تعلمنا أن نعرف قيمة العصا والعكاز اكثر مما كنا نعرف من قبل ، فطوبى لمن يؤمنون وان كانوا لا يرون ، وطوبى لمن يقبلون بالرضا أن يجردوا من كل افراحهم ومسراتهم وتعزياتهم ان كانت هذه هي إرادة الراعي . طالما كانوا لا يزالون يستمعون صوته. وطالما كانوا يدركون أنه قريب.

اصغ الى تصريح النفس التقية الممتلئة شجاعة، إذ لا تفتخر بعدم خوفها:

" لا أخاف شرا "، " لا خوف في المحبة. بل المحبة الكاملة تطرح الخوف الى خارج (ايو 4: 18) . لا يستطيع أي شيء آخر ان يفعل ذلك . قد تتكلم ضد الخرف ، وتهزأ به . قد تسعى لتجنبه ، لكن ذلك كله دون جدوى . إن اردت ان تتغلب عليه يجب أن تطرده بالثقة التي تنشئها المحبة.

قد يدخل الرجل بيته متعبا وجائعا جدا يريد أن يلتهم الطعام التهاما، لكنه اذ يدخل ويعلم أن ابنه انتابته حمى مفاجئة ومشرف على الموت فانه في الحظة ينسي جوعه . وفي محبته الملتهبة لابنه وحزنه الشديد ينحني على جسمه ويسرع ليبرد شفتيه المحمومتين بقطرات من الماء. هكذا تتلاشى العواطف الصغرى في النفسي امام العواطف الأسمى. . . .

وهكذا يحدث أن أكثر الأشخاص جبنا وضعفا عندما يشعر برفقة الراعي الصالح له يستطيع أن يترنم اذ يعبر الظلام ، وتنتعش روحه ، وتمتلي قوة وحيوية وشجاعة ، ويتهلل قائلا : " اذا سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شراً "• " الله لنا ملجا وقوة ، عونا في الضيقات وجد شديداً ، لذلك لا نخشي ولو تزحزحت الأرض ولو انقلبت الجبال في قلب البحار " (مز 46: 1و2).

حسن جدا أن تقول " في يوم خوفي أنا عليك اتكل "، (مز 56: 3) . وأفضل من ذلك أن نقول " هوذا الله خلاصي فأطمئن ولا أرتعب ، (اش ٢٠١٢)٠

الحزن والموت يجعلان حضور المسيح يقينيا:

هل لاحظت تغيير صيغة الخطاب في هذه الأية من الغائب الى المخاطب . الى الان كان المرنم يتحدث عن الله بصيغة الغائب ، أما الآن اذ ينزل في الظلام فانه يزداد اقترابا من القائد والمرشد الالهى ، ويتحدث اليه في همس قائلا له " لأنك أنت معي ". في المراعي الخضراء كان يكفي أن يقول عنه (هو)، أما الآن فالحاجة تدعو الى زيادة الاقتراب في الحديث .عندما تسير الأمور معنا سيرها الحسن نكتفي بأن نتحدث عن الرب ، ولكن عندما يكفهر الجو تسرع في الالتجاء اليه مباشرة . ان الطفل الذي كان يلهو في البيت ويلعب تراه يركض مسرعا الى حضن أبيه اذا عصفت العواصف وأرعد الرعد . هكذا تصبح ساعة الموت ساعة الشركة العميقة مع الله والتمتع بحضرته.

في بعض الأحيان يكون الظلام كثيفا جدا بكيفية لا تسمح لنا برؤية المسيح. لكن الايمان يثق دائما بوجوده لأنه قال « لا أهلك ولا أتركك » (يش 1: 5)٠ انه يتطلع الينا برقة لا يعتريها الضعف و قد تحجه الأعماق عن أبصارنا ،

لكن لا موت ولا حياة ، ولا علو ولا عمق ، تقدر أن تفصلنا عن محبته لنا الثابتة الأمينة . نعم، " فان الجبال تزول والاكام تزعزع اما احساني فلا يزول عنك و عهد سلامي لا يتزعزع قال راحمك الرب » (اش 54: ١٠).

" كـالظلام هكـذا النـور" لـديك أيهـا المسـيح (مـز 139: 12)، يـا مـن دسـت ظلمـة جثيمـاني والجلجثـة الكثيفـة وحـدك ، لكنـك أنـت تعـرف الطريـق لأنـك جزتـه . انـك قـد حجـزت الـوادي وحيـدا لكـي لا نكـون نحـن وحيـدين - أنـت دسـت المعصـرة لكـي يسـتطيع كـل واحـد مـن أولادك الضـعفاء فـي كـل الأجيـال أن يتـرنم بهـذه الكلمات المعزية : " لا أخاف شرا لأنك أنت معي ".

منقول مع التنسيق من كتاب (مزمور الراعي) لسنة 1988

الرب يستخدم هذه المقالة لمجد اسمه وخلاص الكثيرين

صفوت زكي سمعان